الإبل في التراث العربي

ظلت الإبل رفيقاً مخلصاً للعربي، منذ نشأته، في حله وترحاله، يجد عندها طعامه وشرابه، مسكنه وملبسه، وهي ترافقه في حربه وسلمه، وهي سمة لإظهار كرمه وشرفه، ومكانته وعزته. ومن هنا جاء ارتباط العربي ببعيره ارتباطاً وثيقاً، عرف عنه أكثر مما كان يعرف عن نفسه. فأصبح اسم الجمل أو رمزه ملازماً وملاحقاً لاسم العربي أو رمزه، من بين مختلف الشعوب والقوميات على مدى التاريخ البشري. ولذا لم يكن بدعاً أن تتكرر صورة الجمل في كل أثر تركه العربي من شعر ونثر وأهازيج منذ القدم.

وقد ورد ذكر الإبل في القرآن الكريم مرات عديدة. تارة بصريح اللفظ كقوله تعالى ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ (الغاشية: ١٧)، ومرة بلفظة «البعير»، ومرة ثالثة بلفظة «العِير» ورابعة بلفظة «الجمل والجمالة» وخامسة بصفة «الأنعام». وعلى الرغم من أن لفظة «الأنعام» تطلق على الإبل وعلى غيرها، إلا أنها جاءت في عدة آيات ويقصد بها الإبل كقوله تعالى ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم﴾ (النحل: ٥-٧). وكقوله ﴿والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ (الزخرف: ١٢, ١٣). وكقوله مرة ثالثة يتحدث فيها عن تذليلها ومنافعها فيقول ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ (يس: ٧١, ٧٢). فالمقصود بالأنعام في

كل هذه الآيات الإبل خاصة. كما وردت في القرآن الكريم في آيات أخرى بصفاتها مثل ﴿وعلى كل ضامر﴾ (الحج: ٢٧)، ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ (الحج: ٣٦) ثم ﴿وإذا العشار عُطّلت﴾ (التكوير: ٤).

غير أن اللفظة التي كثر ذكرها في القرآن هي الناقة، فقد تكرر ذكرها سبع مرات، ولعل تميز الناقة عن الجمل في كثرة الذكر لكثرة منافعها، فهي وعاء النسل، ومصدر الحليب واللبن ومشتقاتهما، ولها فوائد جمة يعرفها الذين يربون الإبل.

وورد ذكر الإبل في القرآن الكريم، في عدة مواضع تحدياً وعبرة وآية للإنسان عامة وللعربي خاصة، لارتباطه الوثيق بالإبل في جميع مناحي حياته. فجعل الله من خلقها مصدراً لإلهام العربي قدرة التفكير في ملكوت الله وإرشاده بالمنطق والعقل إلى طريق الصواب والهداية إليه سبحانه وتعالى خالق الكون وما فيه، وللدلالة على وجود اللطيف الخبير عز وجل. قال الله سبحانه وتعالى مرشداً وهادياً ومتحدياً ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ (الغاشية: ١٧).

كما جاء ذكر الناقة في القرآن الكريم آية واضحة وفتنة بالغة لبني البشر للدلالة على وجود الرسل وتأييد الله لهم بدلائل النبوة، مع تقديم الحجة القوية لوجود عذابه لمن عصاه. قال تعالى ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها﴾ (الشمس: ١٣). وقال تعالى ﴿إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر﴾ (القمر: ٢٧). وقال تعالى ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم ءاية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ (الأعراف: ٧٣). وقال سبحانه ﴿وياقوم هذه ناقة الله لكم ءاية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ (هود: ٦٤). وقال جل وعلا ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ (الشعراء: ١٥٥-١٥٦). وقال عز من قائل ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ (الأعراف: ٧٧). وقال عز وجل ﴿وما منعنا أن نرسل بالأيات إلا أن كذب بها الأولون وءاتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالأيات إلا تخويفا﴾ (الإسراء: ٥٩). وشبه سبحانه وتعالى شرر لهيب جهنم

تشبيهاً بليغاً ملموساً لدى العرب، فقال عز من قائل ﴿ويل يومئذ للمكذبين. انطلقوا إلى ماكنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر﴾ (المرسلات: ٢٨-٣٣).

ومما يوضح إكرام الله تعالى للإبل أن جعلها من شعائره عز وجل، ومن تسخيرها طائعة لبني البشر. كما أوضح آداب وأغراض استخدامها للإنسان لعله يتفكر ويشكر. قال الله تعالى ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ (الحج: ٢٧). وقال تعالى ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ (الحج: ٣٦). وقال تعالى ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا ياأبانا مانبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾ (يوسف: ٦٥). وقال عز من قائل ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ (يوسف: ٧٠). وقال تعالى ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾ (يوسف: ٧٢).

وأقام دليل التحدي في الإبل قائلاً عز وجل ﴿وإذا العشار عطلت﴾ (التكوير: ٤). وجعلها مظهراً من مظاهر الجمال، فقال ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ (النحل: ٦).

وتدل كثرة ضرب القرآن المثل بالإبل، استشهاداً أو تشبيهاً، أو تحدياً وإعجازاً، على أن هذه الإبل كانت أكثر شيء قرباً وارتباطاً بالعربي المتوجه إليه بالخطاب. لهذا ركزَّ القرآن الكريم في خطاب هذا العربي باستيحاء بيئته نباتها وحيوانها ومناخها، فلم يكن من حيوانها مضرباً للمثل أو العبرة أو العظة أو التمثيل أو التشبيه كالإبل. وبهذا المعنى ينبهنا القرآن الكريم إلى قوة الصلة والارتباط بين العربي والإبل.

ولّما كانت البيئة التي خاطب بها القرآن الكريم هذا العربي، هي البيئة نفسها التي خاطبت بها السنة المطهرة ذلك العربي، وجدنا في أقوال المصطفى ﷺ الكثير من الأحاديث التي تتخذ من الإبل محوراً لتمثيلها أو عظتها وعبرتها. فعنه ﷺ أنه قال «الإبل عز لأهلها» (سنن ابن ماجه: ٦٩).

وقد أبان الإحصاء أن الإبل وردت في المأثور من قول الرسول ﷺ في نحو ١٠٩ من الأحاديث، بينما جاء ذكر البَدَنة في ٥٦ حديثاً. وهي أحاديث تعالج ما كان سائداً من التقاليد والعادات الخاطئة عن الإبل في الجاهلية وتصحيح الإسلام لمفاهيمها. فمن ذلك أنهم كانوا يذبحون أول نتاج لإبلهم ولا يملكونه؛ رجاء البركة في الأم وكثرة نسلها، وكانوا يسمونه الفرع فجاء توجيهه ﷺ بإلغاء هذه العادة حين قال «لا فرع ولا عتيرة». كما كان من عاداتهم أن الرجل إذا بلغْت إبله مئةً قدَّم بكراً فنحره لصنمه، ويدعونه فرعاً، فنُهي المسلمون عن ذلك. أما العتيرة فهي: ذبيحة يذبحونها في العشر الأوائل من رجب. وكان من عاداتهم أيضاً أن الناقة إذ أنجبت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكراً بَحَروا أذنها أي شقوها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تُحلأ (لا تطرد) عن ماء ترده، ولا تُمنع من مرعى وتسمى البَحِيرة، كما كانوا ينذرون لآلهتهم إحدى النياق فيتركونها فلا يتعرضون لها، ويسمونها السائبة، أما الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن فتسمى الوصيلة فلا يذبحونها ولا يضربونها ولا تمنع مهما ترد على حوض. أما الحامي، وهو الفحل من الإبل، فيضرب الضرب المعدود قبيل عشرة أبطن فإذا بلغ ذلك قالوا: هذا حامٍ أي حمى ظهره، فيترك فلا ينتفع به بشيء، ولا يمنع عن ماء، ولا رعي، ويقول الفراء: الحامي هو إذا لقح ولد ولده فقد حمى ظهره فلا يركب ولا يجز له وبر، ولا يُمنع عن مرعى.

كل هذه المعتقدات والعادات جبَّها الإسلام، وحرمها تحريماً مطلقاً حينما نزل قوله تعالى ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام...﴾ (المائدة: ١٠٣). أما في غير الإسلام فلحم الإبل محرَّم في التوراة، لأن الإبل غير مشقوقة الظلف «كُلُّ ما شَقَّ ظِلْفاً، وَقَسَمه ظِلْفَين، ويجتَرُّ من البهائم، فإياه تأكلون إلاّ هذه فلا تأكلوها ممّا يجْتَرُّ، وممّا يَشُقّ الظِّلْفَ: الجَمَلَ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ، لكنَّه لا يَشُقُّ ظِلْفاً، فَهو نَجِسٌ لكُمْ» (سفر اللاويين: ٤-٥) وأما عند المسيحين فلحم الإبل محلل.

واختلف في انتقاض الوضوء بأكل لحم الإبل، فقال بعدم انتقاضه الخلفاء الراشدون الأربعة، ومعظم الصحابة والتابعين، والأئمة الثلاثة: أبو حنيفة والشافعي ومالك بن أنس. وقال بانتقاضه الإمام أحمد ابن حنبل، وابن راهويه، والبيهقي.

أما زكاة الإبل فإجماع الأئمة على أنها واجبه متى بلغت نصاباً، وحال عليها الحول، وكان مالكها حراً.

ومما جاء في الحديث الشريف والأثر عن الإبل ما رواه عمر بن الخطاب # قال «قال رسول الله ﷺ تجدون الناس كإبل مئة لا يجد الرجل فيها راحلة» وفي معنى آخر «الناس كالإبل ترى مئة لا تجد فيها راحلة» (ابن حنبل، ج٢: ٧).

وروي أن قيس بن عاصم قال، «أتيت رسول الله ﷺ فرحب بي وأدناني فقلت: يارسول الله، المال الذي لا يكون علي فيه تبعة ما ترى في إمساكه لضيف إن طرقني، وعيال إن كثروا عليَّ، فقال: نعم المال الأربعون، يعني الإبل، والأكثر الستون، وويل لأصحاب المئين، ثلاثاً، إلا من أعطى من رسلها (اللبن)، وأطرق فحلها (أعاره للضراب)، وأفقر ظهرها (أعارها للركوب أو للحمل عليها) ومنح غزيرتها، (تعطى لتحلب وترد)، وأطعم القانع والمعتر (المحتاج إلى الصدقة من غير أن يسأل) (ابن حنبل، ج٥: ٢٤). وفي صحيح مسلم قريب من هذا (مسلم د.ت، ج٣: ٧٤).

وروي أن عمر بن الخطاب # قال: «إذا اشتريت بعيراً فاجعله ضخماً فإن أخطأك خبر لم يخطئك سوق».

وكان لرسول الله ﷺ عدد من الإبل وأشهرها ناقته (القصواء)، التي اشتراها من أبي بكر الصديق # بأربعمئة درهم وهاجر إلى المدينة المنورة، وتسمى أيضاً بـ(العضباء) و(الجدعاء)، ومن الثابت أنها حملته عليه السلام في حجة الوداع، وعليها خطب خطبته المشهورة يوم عرفة، فقد تردد ذكرها في صفة حجة النبي ﷺ التي رواها عنه جابر #. وكان له عشرون لقحة بالغابة وهي التي أغار عليها القوم، يأتي لبنها أهله رضوان الله عليهم كل ليلة، وكان له لقاح غزار منهن الحسناء، والسمراء، والعريس، والسعدية، والبغوم، واليسيرة، والرياء، ومهرة، والشقراء.

وورد في المأثور أيضاً: «لا تسبوا الإبل فإن فيها رقوء الدم» والمقصود بذلك أنها تعطى في الديات فتحقن بها الدماء والرَّقوء -على فعول بالفتح- ما يوضع على الدم.

الإبل في اللغة

يطلق على الإبل أسماء عدة في اللغة، منها: الإبل والشول والعشار، والنوق والأينق والنياق، والأباعر والبعران والأبعرة. إضافة لذلك فقد ذُكر في كتاب نظام الغريب في اللغة أن الأنعام هي

المواشي كلها من الإبل والبقر والأغنام. أما النعم فهي الإبل السائمة، والنوادي ويراد بها النواد، وهي الإبل المتفرقة، تقول العرب أند البعير: إذا نفر وهرب، أما الجرجور والدثر والعكنان والجامل فهي الإبل الكثيرة، والبرك: الإبل الباركة، والجلة كبار الإبل. أما الإفال والحشو والدردق فهي صغار الإبل. قال الراجز:

إن تسلم الجلة فالحشو هَدَرْ

والمتلية هي التي معها ولدها يتلوها لأنها تلد متأخرة عن النياق الأخرى، والمخيسة هي الإبل المشدودة بالرحال، والحقاق هي الإبل (النياق) الصغار دون الكبار، وهي جمع حقة وهي التي استحقت الفحل، أما الحُمول بالضم فهي الإبل المرحولة، والبهازر النوق السمان واحدتها بهزرة وهي النخلة العظيمة.

وذكر الثعالبي في كتاب فقه اللغة وأسرار العربية أن البكر من الإبل بمنزلة الفتى، والقلوص بمنزلة الجارية، والجمل بمنزلة الرجل والناقة بمنزلة المرأة والبعير بمنزلة الإنسان.

ويقول الدميري في كتاب حياة الحيوان الكبرى: الإبل هي الجمال وهو اسم يقع على الجمع وليس بجمع ولا اسم، إنما هو دال على الجنس. ويقال للإبل بنات الليل، ويقال للذكر والأنثى منها بعير إذا أجذع ويجمع على أبعرة وبعران. وتجمعه البادية على بعارين وأباعر وهو فصيح، قال الشاعر:

زوامل للأشعار لا علمَ عندهم
بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا
بأحماله أو راح ما في الغرائر

وهذا في نجد والشمال. أما في الجنوب فبعارين تختص بها الذكور فقط، فإذا كانت نياقاً ومعها ذكور فهي إبل.

والبعير سمي بعيراً؛ لأنه يبعر يقال بعر البعير يبعر. وهو اسم يقع على الذكر والأنثى، وحكي عن بعض الأعراب قولهم: صرعني بعيري: أي ناقتي، وشربت من لبن بعيري، وإنما يقال له بعير إذا أجذع والجمع أبعرة وأباعر وبعران.

وورد في كتاب الحيوان للجاحظ أن الأعلم هو البعير ويسمى بذلك لأنه أبداً مشقوق الشفة العليا، والبعير هو مركب هود وصالح وشعيب والنبيين عليهم السلام.

وقد ورد في التراث أسماء مختلفة تصف الإبل وتميزها في حالاتها المختلفة من سمن وضعف وسلوك وعدد وما إلى ذلك من كل ما يتعلق بها تقريباً.

فمن أسماء الناقة القوية عندهم الوجناء يريدون بها الناقة الشديدة القوية مأخوذ اسمها هذا من الوجين، وهو ما غلظ من الأرض، وقيل ظاهرة الوجنات، قال زهير بن أبي سلمى ذاكراً الناقة الوجناء:

فلما رأيت أنها لا تجيبني
نهضت إلى وجناء كالفحل جلعد

والجلعد: الشديدة. والعنس الناقة الشديدة شبهت بالصخرة لصلابتها؛ قال أوس بن حجر في العنس:

وعنس أمون قد تعللت متنها
على صفة أو لم يصف لي واصف

وقوله أمون يعني: حسنة وثيقة الخلق مأمونة. والعنتريس هي الناقة الصلبة الوثيقة من العنتريس وهي الداهية، والعنتريس: الذكر من الغيلان وهى أيضاً عرندس ومتلاحكة. أما العيسجور فهي الناقة الصلبة السريعة من العيسجور وهي السعلاة. ومثلها السناد وهي الناقة الشديدة الخلق الطويلة القوائم المرتفعة الغارب، ومسندة السنام من السند وهو ما ارتفع من الأرض وقيل الجبل. والمفرهة الناقة التي تلد الفره في الإبل وهي القوية السريعة. قال مالك بن جعدة:

تحل على مفرّهة سناد
على أخفافها علق يمور

والجلس أيضاً الناقة الشديدة. والجلس من الإبل الجسيم الوثيق، من الجلس، وهو الجبل والصخرة العظيمة. والجالس هو البعير عندما يكبر سنه. والشجعاء الناقة الشديدة السرعة، الخفيفة من الشجاع وهو نوع من الحيات. والعذافرة من الإبل العظيمة الشديدة وهي دوسرة أيضاً. قال الحطيئة مشيراً إلى الناقة العذافرة.

عذافرة خرساء فيها تلفت
إذا ما اعتراها ليلها المتطاول

وقوله خرساء، أي أنها لا ترغي (كتوم)، وفيها تلفت أي أنها قلقة من طول السرى في الليل. والعلنداة الناقة الضخمة الشديدة أو الحسنة الخلق والفتية، والعلندى البعير الضخم. والعلندى نوع من شجر الرمل، والعلنداة شجرة صلبة العيدان طويلة. وإذا كانت الناقة أيضاً تامة الجسم حسنة الخلق فهي عيطموس ودلعبة. قال ذو الرمة يصف ناقة علنداة:

يتبعن شأو علنداة مذكرة
خطارة مرة إحدى المماهير

والشأو، الطلق في الشوط، ومذكرة شبيهة بالذكر وهو الفحل من الإبل، وخطارة تخطر في سيرها، والمماهير الماهرات في السير. والمقذوفة هي الناقة السمينة قال عبدة بن الطبيب مشيراً إليها:

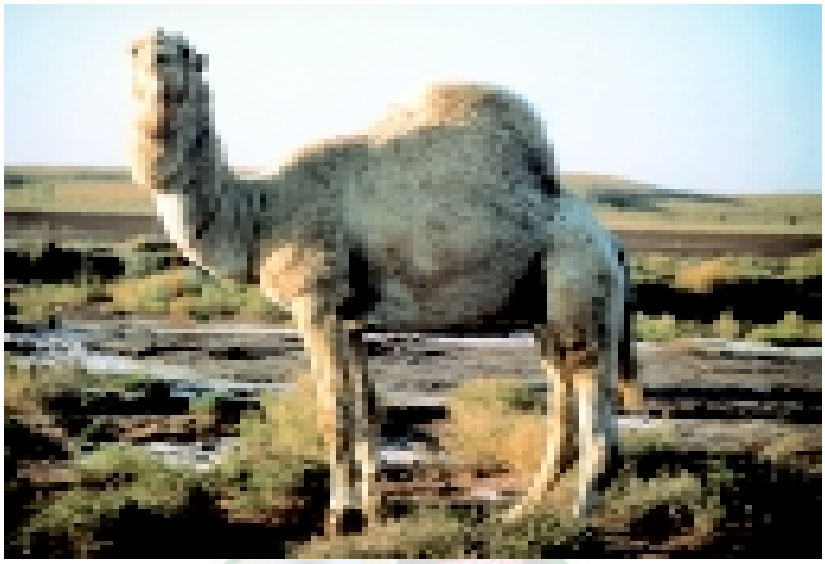

العلندى: البعير الضخم

قرواء مقذوفة بالنحض يشعفها
فرط المراح إذا كان المراسيل

ويشعفها: يدفعها، والشعفة: القلب، والمراسيل (واحدها مرسال): الراعي، والقرواء: الناقة الطويلة القرا وهو الظهر. ويقال للناقة السمينة أيضاً المدفأة وهي الكثيرة الأوبار والشحوم.

أما الإبل الضِّعاف فمنها المزجيات وهي الأبل الكالة من التعب؛ قال عبدة بن الطبيب:

ومزجيات بأكوار محملة
شوارهن خلال القوم محمول

وتزجي: يسار بها رويداً رويداً، والشوار: المتاع، والنضو: البعير المهزول والناقة نضوة؛ قال ذو الرمة:

قطعت به ليلاً على كور نضوة
تعاطي زمامي مرة وتجاذبه

والعوجاء: هي الناقة التي اضطرب (تغير) خلقها بسبب الجدب (القحط) والمحل فهزلت. والرجزاء أيضاً الناقة الضعيفة العجز إذا نهضت من مبركها لم تستقل (تتوازن). قال أوس بن حجر:

هممت بخير ثم قصرت دونه
كما ناءت الرجزاء شد عقالها

أما الرذايا (والواحدة رذية) فهي النوق التي هزلت وتعبت من السير فلا تلحق بالركب. ووصفوا النوق في السير بصفات منها الجسرة وهي الناقة العظيمة التي تجرؤ على السير والهول فلا تقف؛ قال علقمة بن عبدة (علقمة الفحل):

بجسرة كعلاة القين دوسرة
فيها على الأين إرقال وتبغيل

العلاة: سندان الحداد، والدوسرة: القوية، والأين: الإعياء والتعب.

وإذا كانت الناقة سريعة فهي عصوف ومشمعلة وعيهل وشملال ويعملة وهمرجلة وشميذرة وشملة؛ قال عبيد بن الأبرص:

وقد أسلِّي همومي حين تحضرني
بجسرة كعلاة القين شملال

والناجية هي الناقة التي تنجو براكبها أيضاً؛ قال طفيل الغنوي:

وجعلت كوري فوق ناجية
يقتات شحم سنامها الرحل

والسيلق الناقة الماضية في سيرها. قال جعفر ابن علبة الحارثي:

وسيري مع الفتيان كل عشية
أباري مطاياهم بصهباء سيلق

والهوجاء هي الناقة التي ترمي بنفسها من النشاط أثناء سيرها. أما القوداء فهي الطويلة العنق والظهر من الإبل. والأقود الطويل العنق والظهر من الإبل، وهو من الأقود وهو الجبل الطويل. والأصوص الناقة الحائل السمينة. قالت العرب في أمثالها «أصوص عليها صوص» والصوص هنا اللئيم أي ناقة حائل يركبها لئيم.

أما القلوص من النوق فهي الشابة النشيطة المستمرة في سيرها وجمعها قُلُص وقلائص، وجمع القُلُص قِلاص؛ قال مالك بن الريب:

ألا ليت شعري هل أَبِيتَنَّ ليلة
بوادي القرى أزجي القلاص النواجيا

والقلوص لدى البادية هي الناقة التي تقرن بحبل في ناقة أخرى عليها راكب؛ قالت ليلى الأخيلية:

كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ
قلائص يفحصن الحصا بالكراكر

وقالت العرب في أمثالها «آخر البز على القلوص». والبز الثياب المقلوصة أي المربوطة في أخرى.

والجلالة الناقة العظيمة، وإذا كانت الناقة غليظة ضخمة فهي جَلنْفعة وكنعرة، أما إذا كانت طويلة ضخمة فهي عندهم جسرة وهرجاب. وإذا كانت طويلة السنام فهي كوماء، أما إذا كانت عظيمة السنام فهي عندهم مقحاد. والعيرانة والعرمس الناقة الصلبة النشيطة شبهت بحمار الوحش في السرعة والنشاط. والشمردلة الناقة الحسنة الجميلة. وإذا كانت الناقة عظيمة الجوف فهي مجفرة. أما إذا كانت قليلة اللحم فهي حرجوج وحرف ورهب. فإذا كانت الناقة تنزل وحدها ناحية (تبتعد عن

الإبل) فهي عندهم قذور. والبعير الأذب: الكثير الوبر.

إضافة لذلك فقد شبه العرب إبلهم بحيوانات أخرى وأشياء أخرى في شكلها وصفاتها. فقد شبهوا الناقة بالفحل من الإبل؛ يقول ذو الرمة:

كأنها جمل وهم وما بقيت
إلا النحيزة والألواح والعصب

والجمل الوهم هو الفحل من الإبل، ويكون أعظم خلقاً من الناقة، ولذلك قالت العرب «ناقة جُمالية». والوهم عظيم الخلق، والنحيزة: الضعيفة، والألواح العظام العريضة؛ يقول الأخطل:

كبداء دفقاء محيال مجمرة
مثل الفنيق علاة رسلة الجنب

والكبداء العريضة الصدر، والدفقاء التي تتدفق في سيرها، والمحيال التي لم تنجب ولداً، والمجمرة الغليظة الأخفاف، والفنيق الفحل من الإبل. والرسلة الخفيفة.

إضافة لما تقدم فقد شبهوا الإبل بحيوانات أخرى مثل العيرانة وهي الناقة المشبهة بالعير من الوحش لصلابتها. كما شبهت بالبقرة الوحشية، وبالأشجار وكثبان الرمل والرياح وغير ذلك؛ فالرامسات هي الإبل التي تخرج ليلاً، والرامسات أصلاً هي الرياح التي تذرو التراب، والوقادة مأخوذة من الريح الشديدة الباردة. والبزخاء الناقة في عجزها (مؤخرتها) وطأة (انخفاض) وهو الوطاء من الرمل.

ومما أخذ من أسماء الجبال قولهم القهب للعظيم من الإبل مأخوذ من الجبال، واللابة: الإبل المجتمعة السود مأخوذ من اللوبة وهي الحجارة السود تكون في أنف الجبل، والوأب البعير العظيم والناقة العريضة مأخوذ من الوأبة وهي النقرة في الجبل، والصفاح من الإبل التي عظمت أسنمتها مأخوذ من الصفاحة وهي الصخرة، والصلندحة الناقة الصلبة من الصلندح وهو الحجر العريض، وناقة جماد مأخوذة من الأرض الجماد وهي الغليظة. والعمدة الناقة الباقية على القر والجدب مأخوذ من العمدة وهي الصخرة الراسية، والعبدة الناقة الشديدة مأخوذة من العباديد وهي الآكام، والكبداء الناقة العظيمة البطن، والكبداء هي القطعة الصلبة من الأرض، والجلذية الناقة القوية الشديدة الصلبة مأخوذ من الجلذي وهو الحجر أو من الجلذاءة وهي الأرض الغليظة الصلبة. والقار القطيع المجتمع من الإبل مأخوذ من القارة وهي الحرة ذات الحجارة السود، والطبز وهو الجمل

ذو السنامين، والطبز هو ركن الجبل. والخال البعير الضخم والخال هو الجبل الضخم. والعرمس الناقة الصلبة الشديدة، والعرمس في الأصل هي الصخرة. والخشناء الناقة العجفاء والخشناء هي الأرض الغليظة. والتلاعة الناقة الطويلة العنق المرتفعة مأخوذ اسمها من التلاعة وهي الأرض المرتفعة. والدحنة البعير الغليظ من الدحنة وهي الأرض المرتفعة.

ومما أخذ من أسماء الحيوانات وصفاتها العيثوم وهو الجمل الضخم الشديد والعيثوم هو الفيل. والشدنية الناقة الفتية الصغيرة الجميلة مأخوذ اسمها من الشادن وهو ولد الظبي، والكوادنة الناقة العظيمة مشتق من الكودن وهو البرذون أو البغل. وبعير ذب أي صلب قوي من الذب وهو الثور الوحشي. والسمج الناقة الطويلة شبهت بأتان (حمارة) الوحش الطويلة. والدلهاث الجريء من الإبل والدلهاث هو الأسد الجريء المفترس. والسبنتاة الناقة الجريئة والسبنتاة هي اللبوة. والعرندس البعير الضخم والعرندس أصلاً هو الأسد الشديد، وكذلك العميثل فهو الجمل الضخم والعميثل هو الأسد. والنسول هي الناقة السريعة مأخوذ من نسلان الذئب وهو سرعته، والعملس الجمل القوي على

الدهنج أو الطبز: الجمل ذو السنامين

السير السريع، والعملس من صفات الذئب السريع، والعنسل هي الناقة السريعة مشتق اسمها من عسلان الذئب وهو سرعته، والسلقم العظيم من الإبل مأخوذ من السلقمة وهي الذئبة، والشيذُمانة الناقة الفتية (الشابة) السريعة والشيذُمانة من أسماء الذئب، والعسبرة والعسبورة الناقة النجيبة السريعة مأخوذ من العسبار وهو ولد الذئب.

ومما أخذ من أسماء الطير قولهم: السمامك للناقة السريعة مأخوذ من الطير المعروف بالسمام، وحجل الإبل صغار الإبل (أولادها) مأخوذ من طائر الحجل، والعوهج الناقة الشابة الفتية وهي من أسماء النعام، والهجنع من أولاد الإبل وهو ما نتج في حمارة القيظ وقلما يسلم من قرع الرأس (مرض)، وتسميه البادية قيظيْ وأمه مقيظ مثل الذي يولد في الصيف فهو صيفي وأمه مصيف، وهو مأخوذ من الهجنع وهو الظليم الأقرع (ذكر النعام). والعوهق هي الناقة الطويلة مشتق من العوهق وهي النعامة الطويلة.

واستعاروا من أسماء الزرع والسلاح والبيوت المراكب والمناهل أسماء لإبلهم أيضاً، فقولهم ناقة علجن، أي مكتنزة اللحم مأخوذ من العلجان وهو نوع من الشجر، والبهاريز النوق الصفايا مأخوذ من النخل، والعشة هي الناقة الدقيقة المهزولة، وتسميها البادية عراء، مأخوذ من النخلة الصغيرة الرأس القليلة السعف، وبصاق الإبل خيارها وهو مأخوذ من نوع من النخل، والحرف الناقة النجيبة شبهت بحرف (حد) السيف أو حرف الجبل لدقتها؛ قال جرير يصف ناقته:

حرفاً أَضرّ بها السِفار كأنها
جفن طويت به نجاد يمانِ

والرهب الناقة الضامرة مأخوذ من الرهب وهو السهم أو النصل الرقيق، والناقة العلاة هي الصلبة الجسيمة مشبهة بالعلاة وهي السندان. وبعير سطاع أي طويل ممتد الجران والعنق، مأخوذ من السطاع وهي خشبة تنصب وسط الخباء. والناقة الخبر هي الناقة الغزيرة اللبن شبهت بالخبر وهي المزادة. والصرصور العظيم الجسم من الإبل والصرصور نوع من السفن. والخلية الناقة التي عطفت على ولد واحد مأخوذ من الخلية وهي السفينة العظيمة التي يتبعها زورق، وناقة أجد ومؤجدة يعني موثقة متصلة الفقار مأخوذ من الآجاد وهو قصر محكم البناء. وإبل جفار غزيرة شبهت بجفار الركايا، والجفر هو البئر الواسعة. وناقة عفرناة قوية مأخوذ من العفرية وهي الداهية. والقرطبوس الناقة العظيمة الشديدة

والقرطبوس أيضاً الداهية. والدبل البعير إذا امتلأ لحماً وشحماً والدبل الداهية أيضاً. والدرخمين هو الضخم من الإبل والدرخمين من أسماء الغيلان، والعقد الجمل القصير القوائم الطويل السنام، فإذا مشى مع الجمال قصر عن طولها وإذا برك معها طالها لطول سنامه. والعقال: القلوص الفتية، والعندل: البعير الضخم الرأس يستوي فيه الذكر والأنثى.

وللإبل عدد من الصفات منها ما هو على هيئة مرض ومنها ما هو طبيعي أو خلقة؛ فقولهم: بعير أحرد وناقة حرداء وذلك أن يسترخي عصب إحدى يديه من عقال أو يكون خلقة حتى كأنه ينفضها إذا مشى. والحرد داء في القوائم إذا مشى البعير نفض قوائمه فضرب بهن الأرض. وبعير أخلف أي مائل على شق. وناقة خنفاء، من الخنف وهو لين في أرساغ البعير. والخَيَفُ إذا كانت إحدى عينيه كحلاء والأخرى زرقاء، وبعير أخيف وناقة خيفاء. والدرفس الضخم من الإبل والأنثى درفسة. والدردق صغار الإبل. والدلهث سريع الجري. وبعير دالح إذا دلح وهو تثاقله في مشيه من ثقل الحمل. وناقة دلوخ ودلخاء موقرة شحما. والدهنج والدهج البعير ذو السنامين. وجمل دوسر ودوسري ودوسراني ودواسري ضخم شديد مجتمع ذو هامة ومناكب بارزة. والسرداح والسرداحة الناقة الطويلة. والسمحج الناقة الطويلة. وناقة شملة وشملال وشمليل خفيفة سريعة مشمرة. وناقة شودح طويلة. والصيعرية أعراض في السير والصيعرية سمة في العنق. والقلوص الفتية من الإبل وقيل هي الثنية وقيل هي ابنة المخاض وقيل هي كل أنثى من الإبل تركب، أو هي التي تربط بحبل في أخرى عليها راكب. وناقة قنعاس طويلة عظيمة سمينة وكذلك الجمل قُنَاعس. وناقة كتوم هي التي لا ترغي إذا ركبها صاحبها. وجمل كز صلب شديد. والنجيب من الإبل الكريم العتيق والقوي الخفيف السريع. والمهللة من الإبل التي ضمرت وتقوست (على هيئة هلال). والجمل الهلقم والهلقام واسع الشدقين. والأوجن من الجمال والوجناء

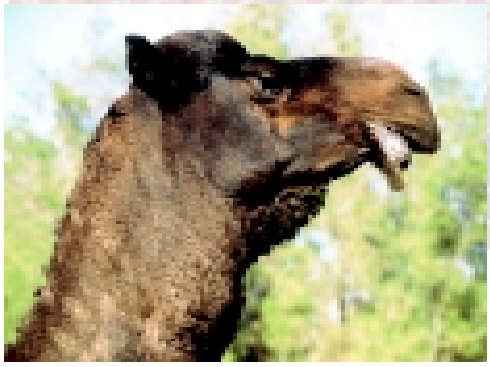

الهلقم: البعير الواسع الشدقين

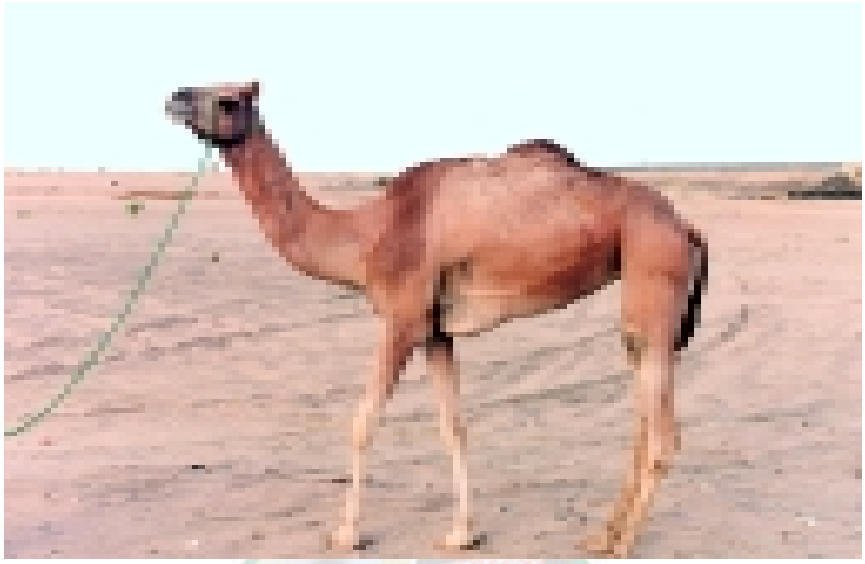

حرة صيعرية

من النوق ذات الوجنة الضخمة وقيل هي العظيمة الضخمة.

وقد ورد في الشعر والتراث العربي أسماء مختلفة تميز الإبل في أعدادها مثل الذود والقطيع من الإبل وهو من ٣-٩ وقيل ما بين ٣-١٠ وقيل من ٣-١٥ وقيل إلى عشرين وفويق وقيل ما بين ٣-٣٠ ولا يكون إلا من الإناث. والشمشول من العشرة إلى العشرين. والصُّبَّةُ من الإبل ما بين ٢٠-٣٠ وقيل ما بين ١٠-٤٠ وقيل هي من الإبل ما دون المئة. والجمجمة هي ستون من الإبل، والجهام أو (البوش) هي الإبل التي لا حصر لعددها، وتكون لأناس متعددين وتجتمع في مكان واحد كمورد للمياه أو روضة واسعة. والحدرة من الإبل ما بين ٢٠-٤٠ وقيل نحو الصرمة. الحطمة العكرة من الإبل. والصديع الصرمة من الإبل وقيل هي نحو الستين من الإبل. والصرمة القطعة من الإبل ما بين ٢٠-٣٠ وقيل ما بين ٣٠-٥٠ فإذا بلغت ٦٠ فهي الصدعة. والجزمة نحو الصرمة. والعرج من الإبل من ٧٠-٨٠ وقيل من ٨٠-٩٠ وقيل ١٥٠ وقيل من ٥٠٠-١٠٠٠ وقيل الكثير من الإبل. وعَضْبَى اسم للمئة من الإبل. والقصلة المجموعة من الإبل نحو الصرمة وقيل هي من ١٠-٤٠ فإذا بلغت ٦٠ فهي الكدحة. وإذا بلغت ٣٠٠ بعير سموها ليلى. والهجمة القطعة

الشمشول: الإبل من ١٠ – ٢٠

الضخمة من الإبل وقيل هي من ٣٠– ١٠٠ وقيل أولها ٤٠ وقيل من ٧٠ إلى أقل من المئة؛ قال محمد بن ناصر المقابله من الشعر النبطي:

كم هـجمةٍ يَـبّسوا صمـلان راعيها
لى سـاج حبل الحقـب قِدّام الاتفان

وقـد وردت بعـض هذه الأسـماء الخاصة بأعداد الإبل في الشعر العربي، يقول عبيد الله بن قيس الرقـيات مشيراً إلى الهجمة من الإبل:

وعـنـدي ممـا خـول الله هـجـمـة
عـطاؤك مـنهـا شولـهـا وعشـارها

أما الذود من الإبل فقـد قالت عنه العرب في أمثالها «الذود إلى الذود إبل»، قال البحتري في هذا المعنى:

مـن لـفـا هذا إلـى مـخـسـوس ذا
ومـن الـذود إلـى الـذود إبـل

واللفا هنا هو الخسيس. أما الشنفرى فيقول:

تـوافْين مـن شـتى إلـيـه فضـمـها
كـما ضـم أذواد الأصـاريم مـنهـل

وأما الـصرمة فقـد ذكرها أبو تمـام بقوله:

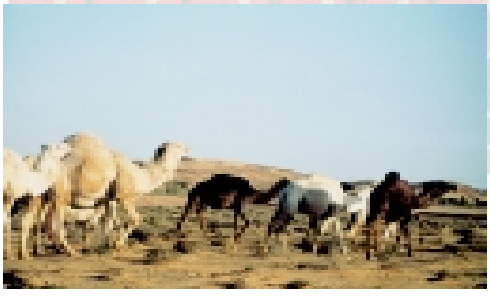

من الذود إلى الذود إبل

من بعد ما صارت هنيدة صرمة
والبدرة النجلاء صارت كيسا

وهند وهنيدة اسم المئة من الإبل؛ قال الأحوص الشاعر مشيراً إلى الهنيدة:

فقبلك ما أعطى الهنيدة جلة
على الشعر كعباً من سديس وبازل

وقال جرير:

أعطوا هنيدة تحدوها ثمانية
ما في عطائهم مَنٌّ ولا سرف

وقال النابغة الذبياني:

الواهب المائة الأبكار زينها
سعدان توضح في أوبارها اللّبد

وقال الكميت في الجرجور وهو الجماعة من الإبل:

ومُقِلٍ أَسَقْتُمُوه فأثرى
مائةً من عطائكم جرجورا

أما العرج فقد ذكره طرفة بن العبد بقوله:

يوم تبدي البيض أسؤقها
وتلف الخيل أعراج النعم

أسؤقها: جمع ساق، وتلف: تجمع.

وما تقدم هو قليل من كثير مما قالته العرب عن الإبل في مختلف حالاتها وأسمائها وصفاتها ومشتقات أسمائها وغير ذلك مما فاض به نثرهم وشعرهم.

وكان ذكر الإبل في كثير من مقولات التراث نثره وشعره وأراجيزه، متضمناً علاقة العربي ببعيره وعمق هذه العلاقة. وهي مقولات تدل على معرفة العربي التامة بإبله وأنسابها وصفاتها وأمراضها وسلوكها وشربها وأكلها، وتركيب أجسامها. وما هذه المعرفة إلاّ نتيجة لارتباط البعير بالعربي ارتباطاً وثيقاً في جميع أموره.

الإبل في الشعر العربي

إن دارس الشعر العربي ومتتبعه في أطواره المختلفة، منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، لا يفوته موقع الإبل في هذا الشعر. وهو موقع يختلف قوة وضعفاً، كثرة وندرة، باختلاف البيئات التي ظهر فيها الشعر، واختلاف التقاليد الفنية التي سيطرت على الشعراء من حيث التقليد والتجديد. ففي الشعر القديم، الجاهلي منه والإسلامي، كان ذكر الناقة، في معظم هذا الشعر، خصيصة فنية يحرص عليها الشاعر كجزء مهم من أجزاء قصيدته المطولة غالباً. وتستخدم للتوصل إلى الأغراض المختلفة التي يلم بها الشاعر. ولا غرو في ذلك فقد لازمت الإبل الشاعر في مواقف كثيرة من حياته؛ وقفت معه على الأطلال، ورافقته في رحلته الشاقة الطويلة عبر الصحراء، وأدنته في كثير

من الأحيان إلى أحبابه، ووصلت بينه وبين ممدوحه، ودخلت مجال أنسه وبهجته. فوجدها مصاحبة له في مختلف أدوار حياته. هذا التلازم الشديد بين الشاعر وناقته، جعله يشركها معه في أحاسيسه، فيناجيها ويتخيل أنها تشكو إليه ما تلقاه من وصب السفر ومشقته، وهو يتألم لها ويعطف عليها. ويكفي أن نقرأ أبيات المثقب العبدي التي تشكو فيها ناقته من كثرة السفر والترحل، حتى نحس أي عطف يشعر به الشاعر نحو هذا المخلوق الوفي:

إذا ما قمت أرحلها بليل
تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيني
أهذا دينه أبداً وديني؟
أكل الدهر حل وارتحال؟!
أما يبقي علي وما يقيني؟

وأشار الحتي إلى أن أكثر ما وصل إلينا من أدب العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام، والعصر الأموي كان من الشعر. وقد احتل شعر الناقة قسماً كبيراً من الشعر العربي الجاهلي وذلك نتيجة للمكانة المرموقة التي تحتلها الناقة في نفس العربي في ذلك العصر، وقد يعجب بعضهم إن رأى أن الأبيات الشعرية التي قيلت في الناقة في المعلقات أكثر من الأبيات التي قيلت تغزلاً في المرأة. ويقول الحتي «فمعلقة النابغة الذبياني ستون بيتاً، يتغزل منها في ثلاثة وعشرين، ويصف الناقة في ثلاثة وعشرين. ومعلقة لبيد بن ربيعة تسعة وثمانون بيتاً، يتغزل منها في واحد وعشرين بيتاً، ويصف الناقة في ثلاثة وثلاثين. ومعلقة طرفة بن العبد مئة بيت وعشرة أبيات، يتغزل منها في عشرة ويصف الناقة في ثلاثين. ومعلقة الأعشى خمسة وسبعون بيتاً، يتغزل منها في سبعة عشر بيتاً، ويصف الناقة في عشرين. ويمدح بعض قومه في قصيدة أخرى، فيتغزل في ثمانية عشر بيتاً، ويصف الناقة في واحد وعشرين بيتاً، ثم يمدحهم في ثمانية عشر بيتاً. وأمثلة هذا في شعرهم كثير تكفي فيه النظرة السريعة» (١٤١٠: ٤٨).

وظلت الناقة رفيقة الشعراء في صدر الإسلام والعصر الأموي. وقد امتطاها كعب بن زهير إلى النبي ﷺ لينشده قصيدته بانت سعاد، وقطع بها الفرزدق الفلوات بين بادية البصرة ورصافة هشام بن عبد الملك. وبلغ من كثرة ما قال بعضهم من شعر فيها أن نسب إليها. فالشاعر الأموي الملقب راعي الإبل نكاد لا نذكر اسمه الصريح عبيد بن حصين،

وقد لقب بذلك لكثرة ما قال من شعر في وصف الإبل وتصويرها.

ونهج الشعراء في العصر العباسي، وما بعده، نهج أسلافهم في وصف النوق. ولكن بدأنا نلمس، منذ أوائل هذا العصر، أن الاهتمام بوصف الناقة بدأ يخف شيئاً فشيئاً كلما تقدمنا في العصور، أي كلما قطع العربي شوطاً من الطريق التي سلكها من البداوة إلى التحضر. ومع ذلك، برزت ظاهرة مهمة من مظاهر اهتمام العربي بالإبل، هي ظاهرة تصنيف الكتب فيها. وأول كتاب نعرفه في هذا الميدان هو كتاب الإبل للأصمعي. وأما الذين كتبوا في الحيوان عامة كالجاحظ في كتابه الحيوان، والدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى، فقد خصصوا مكاناً واسعاً للإبل في تصانيفهم.

ولمّا كان هذا البعير هو رفيق العربي في وحدته وتنقله عبر الصحارى والفيافي الشاسعة، مسلياً وحدته، مزيلاً همه، موصله لحبيبته وموطنه، أسماه العرب سفينة البر. وقد ورد الكثير من الشعر العربي القديم متحدثاً عن الجمل، ذاكراً المهام التي يقضيها العربي معتلياً ظهره؛ فمن قول العرب في البعير وإزالة الهم قول أبي تمام:

فوا الذي رتكت تطوي الفجاج له
سفائن البر في خد الثرى تخد

ورتكت: قاربت خطوها في المشي، وتطوي: تقطع، وخد الثرى: وجه الأرض. أما الشاعر العربي علقمة بن عبدة الملقب بعلقمة الفحل فيقول:

فدعها وسل الهم عنك بجسرة
كهمك فيها بالرداف خبيب

يقول الشاعر إذا ضاقت عليك الأمور فاتركها ودعها وتَسَلَّ بركوب ناقة قوية صلبة متجاسرة فيها قوة ونشاط وسرعة، تسير بك أنت ورديفك سير الخبب. أما طرفة بن العبد فيقول:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره
بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

وهو هنا يقول إذا حدث لي هم، فإني أطرده وأبعده عني بركوبي ناقة مفرطة النشاط عوجاء ترقل في سيرها.

وهذا الشاعر ذو الرمة قد وصف ناقته بأنها الدواء الشافي لقطع الفيافي والفلوات عندما تعدو بملع أو خبب، وهي ناقة حرف (ضامرة)، نياف (مشرفة، عالية)، مقورة القرا (محدودبة الظهر) من طول السير:

وحرف نياف السمك مقورة القرا
دواء الفيافي ملعها وخبيبها

أما ناقة الشاعر المتلمس فهي تكره الهوان والمذلة كما يكرههما الحر حيث يقول:

إن الهوان حمار الأهل يعرفه
والحر ينكره والرسلة الأجد

والرسلة: الناقة الذلول، والأجد: الموثقة الخلق. أما الشاعر عبد الله بن فضالة فيقول:

سيبعد بيننا نص المطايا
وتعليق الأداوي والمزاد

يعني أن استخراج أقصى ما عند المطية في النص (العدو) هو الذي يبعدنا عنكم، وليس معنا على مطيتنا إلا زادنا وأوانينا.

كما يشير بشار بن برد إلى أن الرجل يكفيه في سعيه للعيش والمجد حد سيفه ومطية عظيمة الوجنتين قوية صلبة تسرع في عدوها:

سيكفي فتى من سعيه حد سيفه
وكور علافي ووجناء ذعلب

بينما يسلي أوس بن حجر، همومه، بركوب ناقة جسَرة ذات سنام مكتنز بالشحم عظيم في قوله:

فدعها وسل الهم عنك بجسرة
عليها من الحول الذي قد مضى كنز

أما بشر بن أبي حازم الأسدي فيسلي همه بركوب ناقة جسرة شبيهة بالعير وهي تشبه الفنيق (الفحل) من الإبل، ضخمة شديدة، حيث قال:

لولا تسلي الهم عنك بجسرة
عيرانة مثل الفنيق المكدم

أما الأخطل فعندما شعر بأن المكان يضيق به لسبب من الأسباب، امتطى ظهر مطيته وغادر عليها قبل وقت الترحال:

ولما رأيت الأرض فيها تضايق
ركبت على هول لغير أوان

ويعود الأخطل ويقول مرة أخرى إنه لا يزيل الهموم ويبلغ النفس مناها، مهما تباعدت المسافات، إلا ركوب ناقة موثقة الخلق وذلك قوله:

أمست مناها بأرض ما تبلغها
بصاحب الهم إلا الجسرة الأجد

إضافة لما تقدم فإن البعير للعربي كان، وما يزال، وسيلة من وسائل إبداء كرمه وإظهاره لضيوفه وطارقيه، مهما كانت إبله عزيزة عليه. ومن شعرهم في إكرام الضيف، قول إبراهيم بن هرمة:

لا أمتع العوذ بالفصال ولا
أبتاع إلا قريبة الأجل

يعني أنه ينحر الإبل المنتجة وأولادها لضيوفه. أما الشاعر سلمة بن الخرشب الأنماري فإنه يعطي ويهب الإبل المخاض (اللقح) حتى ولو كانت عزيزة على نفسه

ونفيسة على قلبه. وفوق اللقح فهو يعطي البازل والعشار وغزيرة الألبان أيضاً:

بذلـت المخاض الـبزل ثـم عشارهـا
ولم تـنه منـها عن صـفوق مضـائر

وفي هـذا البـيت أوضح الـشاعـر أصناف النوق المحبـبة للعربي بالترتيب حيـث بدأ بالنـوق المخاض، وهي في الدرجة الأولى، ثم أتبعها بالعشار، وهي أثمن مـن الصفوق. أمـا الأعشى فإن أعجاز إبله ضمنت له ملء القدور باللحم لضيوفـه، كما ضمنت ضروعـها إرواء ضيوفـه من لبنـها الخالص (الـصريح) الصافي:

ضـمنـت لـنا أعـجـازهن قـدورنـا
وضروعـهن لـنا الـصريـح الأجردا

فإن كانت الإبل بعد هذا كله وسيلة العربي لقطع الصـحراء، وحمله لذوي الجاه، ومحل فخره واعتزازه، فهي أيضاً وسيـلته لـلنجـاة والهرب مـن أعدائه والمتربصين به؛ يقول الحسين بن مطير:

إلـيك أمـير المؤمنين تـعـسفـت
بنـا البـيد هـوجاء الـنجـاء جنـوب

وتعـسفـت: حادت عـن الطريـق الجادة، والهوجاء الناقة المسرعة كأن بها هوجاً وهو الطيش والتسرع، والنجـاء: الإسراع. وجنوب: نوع من عدو الإبل. أما عبد الله بن الزبير فيقول:

إلـيـك عبـيـد الله تـهوي ركـابـنـا
تـعـسـف مـجهـول الـفلاة وتـدأب

وتهوي: تسرع، وتعسف: تسير على غير هدايـة، وتدأب: تجد وتتعب. أما ناقة أبي الطيب المتنبي فكانت تحمله إلى الحياة الواسعة، ويكيد بها أعداءه، وتدفع عنه الأذى وتمنعه وتنجيه من المهالك:

ولـكـنـهـن حـبـال الحـيـاة
وكـيـد الـعـداة ومـيـط الأذى

إضافة لذلك فإن ناقة المتـنبي، كانت مصدراً لإلهـامه يستقي مـنها حكمة مـن حـكـمـه، حين أوضـح أن الـنـاس لا يتشابهون، بل كل منهم يسعى ويعمل على قدر طاقته وعلمه، مثلهم مثل النوق ليست كلها تشبه الناقة الشملال (القوية السريعة):

وإنمـا يـبـلـغ الإنـسـان طاقـتـه
مـا كل مـاشيـة بـالرحـل شـملال

أمـا الشـاعـر الـفـارس أبو فـراس الحمداني فيقول إن خيله وإبله هما عنوان المجد والجاه والسلطان والقوة، وهو لهذه الأسباب يربطها في مجلسه ويدنيها منه لحبه لها واعترافه بفضلها:

ونـربـط في مـجـالـسـنا المذاكـي
وتـبـرك بـين أرجـلـنـا الـركـاب

أما مطايا أمية بن عـبد شمس فهي وسيلة لنقل النصح وإصلاح ذات البين حيث يقول:

جلبنا النصح تحمله المطايا
إلى أكوار أجمال ونوق

كما كانت الإبل للعربي وسيلة مهمة في اتصاله بمحبوبه، تحمله على ظهورها بالرغم من كلالها وتعبها ليبلغ غاية مناه. وفي هذا قال عمر بن أبي ربيعة:

ومن أجل ذات الخال أعملت ناقتي
أكلفها سير الكلال مع الظلع

يقول إنه من أجل الحبيبة ذات الخال ركب ناقته، وحثها على السير حتى ولو كان بها تعب وظلع (عرج). أما البحتري فيقول إن المشتاق لحبيبته يصل إلى مكان شوقه على نوق بختريات (حسنة السير) عظيمة الأجسام لا تتعب وذلك قوله:

قد يُبلغ المشتاق موقع شوقه
سرى البختريات البعيد كلالها

أما محمد اليزيدي فإنه يفرح ويطرب إذا وجه إبله تجاه الأحبة فيحثها على السير الدؤوب المستمر بسبب شوقه لحبيبته:

يافرحتا إذ صرفنا أوجه الإبل
نحو الأحبة بالإزعاج والعجل
يحثهن وما يؤتين من دأب
لكن للشوق حثا ليس للإبل

كما يتساءل الأخطل هل تبلغني الحبيبة ناقة ذات معجمة (قوية) أثّر الحزام في جنبيها وترك أثره في جلدها؟:

ياصاح هل تبلغنها ذات معجمة
بصفحتيها ومجرى نسعها وقع

وعلى مَرّ الزمن تحول الجمل لدى العربي إلى رموز لمعان كثيرة؛ فالبحتري يصف رجلاً كريماً ينفّق بدون حساب (غُمَر) تستخفّه صغار الخطوب وهو كأنه عَود من الإبل مجرب حيث يقول:

إلى غمر في ماله تستخفّه
صغار الخطوب وهو عَود مجرب

أما الفرزدق فيفتخر بأبيه لأنه نحَّارٌ للإبل:

أنا ابن العاقر الخور الصفايا
بصوأر حيث فتحت العلوم

أي أنا ابن ذلك الرجل الذي ينحر النوق الخور الغزيرة اللبن لأضيافه. وأما الحطيئة فقد رفع قوماً عالياً بعدما كانوا يخجلون من مناداتهم ببني أنف الناقة، فأصبحت بعد ذلك فخراً لهم حيث قال:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يسّوي بأنف الناقة الذنبا

وإبل الحطيئة أيضاً صمام الأمان من الفقر له ولجيرانه، إليها يفزع الناس إذا حل الجدب وانقطع الخصب:

ولم يرعها راع لبيب ولم تزل
هي العروة الوثقى لمن يستجيرها

وأما زهير بن أبي سلمى فعطاء ممدوحه، إذا نفد زاد القوم، الإبل العظيمة

البطون لقرب ولادتها (المخاض)، والمطايا الغزيرة اللبن (الصفايا والعشار) التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها و(المطافل) التي معها أولادها حيث قال:

إذ أنفدوا زاداً يكون عطاؤه
صفايا العشار والمخاض المطافل

ثم أضاف زهير قوله:

هنالك أن يُسْتَخْبَلوا المال يُخْبِلوا
وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

قال الأصمعي عن هذا البيت: إن الرجل العربي كان إذا افتقر أتى بني عمه، فأعطاه كل واحد منهم شيئاً من الإبل، حتى إذا أولدها ومكثت عنده سنين ردها، وهذا هو (الإخبال) وقال غير الأصمعي: إن الاستخبال عند العرب هو أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً فيشرب ألبانها، وينتفع بأوبارها.

تشبيهات الشعراء للإبل

حفل الشعر العربي بتشبيهات مختلفة للإبل تمثلها الشعراء في مختلف المواقف. يقول أبو الطيب المتنبي:

كأني من الوجناء في ظهر موجة
رمت بي بحارا ما لهن سواحل

جعل الناقة كالموج، والمفازة لسعتها كالبحر، وجعل نفسه إذا ركب هذه الناقة كأنه في ظهر المفازة في موجة ترميه في بحر لا ساحل له. وقال ذو الرمة يصف البعير الهزيل المتعب:

طوى بطنه الترجاف حتى كأنه
هلال بدا وانشق عنه سحائبه

وأرجف البعير: جاء متعباً مسترخية آذانه تهتز.

وقال ذو الرمة أيضاً:

لأخفافها بالليل وقع كأنه
على البيد ترشاف الظماء السوابع

والسوابع، كما مرّ، هي الإبل التي لها سبع ليال لم ترد الماء، والظماء العطشى، فيشبه الشاعر صوت أخفاف الإبل على الأرض بصوت رشفات الماء لإبل عطاش منذ سبعة أيام، والرشف هو الشرب بأطراف المشافر، وله صوت مسموع؛ وقال طرفة بن العبد:

أمون كألواح الإران نصأتها
على لاحب كأنه ظهر برجد

والإران التابوت العظيم الضخم، ونصأتها أي زجرتها واللاحب الطريق الواضح البين، والبرجد كساء مخطط. أراد الشاعر أن هذه الناقة الموثقة الخلق يؤمن عثارها في سيرها وعدوها، وعظام الناقة تشبه ألواح التابوت العظيم، وزجرتها على طريق واضح المعالم كأنه كساء مخطط في عرضه. وقال طرفه أيضاً:

كـأن جنـاحـي مضـرحـي تكـنـفا
حفـافيه شـكا فـي العسـيب بمسـرد

يقول: كأن جناحي نسر أبيض غرزا في عظم الذنب فصارا في ناحية. وهنا شبه الشاعـر ذنب ناقته بجناحـي نسر أبيض في الـباطن وفي الحركة. وقال أيضاً:

فـطوراً بـه خـلـف الزمـيـل وتـارة
عـلى حـشف كـالشـن ذاو مـجدد

يقول إن هذه النـاقة تضرب بذنبها مرة على عجزها خلف الرديف (الزميل) ومرة أخـرى تضرب بـه على أخـلاف متشيخة خَلِقة كقربةٍ بالـية (شَنّ) انقطع لبنها. وقال طرفة أيضاً:

لهـا فخذان أكـمل النـحض فيـهما
كـأنـهـمـا بـابـا مـنـيـف ممـرد

يقول: لـهذه الناقـة فخذان أكمـل لحمهما مشابها لمصراعي باب قصر منيف (عـال) ممرد (ممـلـس) أو مطـول فـي العرض. ويستطرد في الوصف قائلاً:

لـهـا مـرفـقـان افـتـلان كـأنـهـا
تمـر بـسـلـمـيْ دالـج مـتـشـدد

والأفتل القوي الشديد، والسلم الدلو لها عروة واحدة مثل دلاء السقائين، والدالج

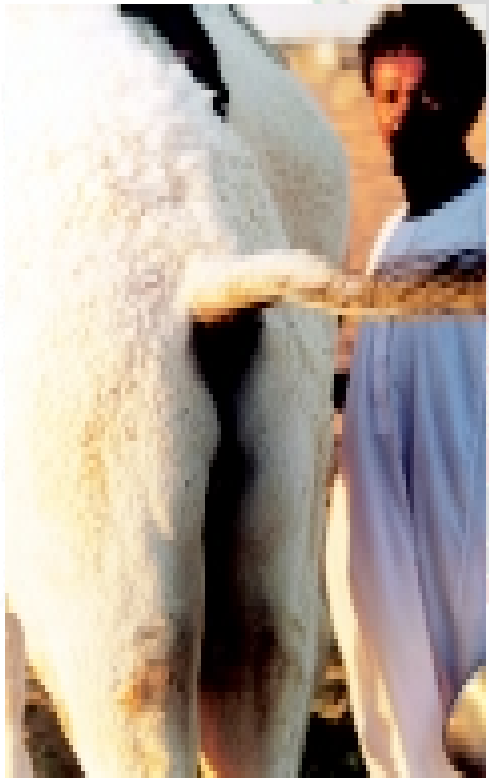

الذي يأخذ الدلو من البئر فيفرغها في الحوض. وهنا شبه طرفة ناقته بسقاء حمل دلوين، إحداهما بيمناه والأخرى بيسراه، فابتعدت يداه عن جنبيه، وشبه بعد مرفقي ناقته عن جنبيها ببعد هاتين الدلوين عن جنبي حاملهما القوي الشديد. وقال الأخطل:

بحرة كأتان الضحل أضمرها
بعد الربالة ترحالي وتسياري

والأتان هنا الصخرة الكبيرة، والضحل الماء القليل، والربالة السمن والخصب. يصف الشاعر ناقته ويعظم من شأنها ويقول إنها كريمة عظيمة كصخرة الماء وقد هزلت وضمرت من كثرة ترحاله وتسياره عليها أي تغير حالها الأول إلى حال آخر. وقال أيضا:

هل تبلغني يزيدا ذات معجمة
كأنها صخرة صماء صيخود

يقول إن ناقته ذات صلابة وشدة كأنها صخرة عظيمة. وقال طرفة بن العبد واصفاً خد ناقته ومشفرها:

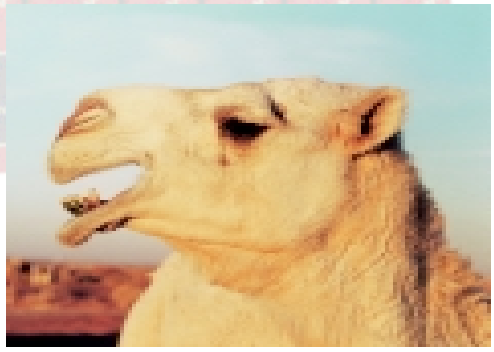

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر
كسبت اليماني قده لم يجرد

شبه الشاعر خد ناقته في لين ملمسه بالقرطاس (الورق)، ومشفرها (شفتها) بالسبت (النعل) في اللين واستقامة القطع.

الإبل في أمثال العرب

استأثرت الإبل، دون سائر أنواع الحيوان، بالكثير من الأمثال العربية. ولا نعرف حيواناً، أو إنساناً، أو شيئاً، أو فكرة من الأفكار، أو موضوعاً من الموضوعات برز في الأمثال العربية بروز الإبل فيها. وقد أحصى الباحثون حوالي ألف مثل متعلق بالإبل وشؤونها، ولو صنفنا تلك الأمثال التي ذُكرت الإبل في قصصها، لتجمع لدينا حوالي ربع الأمثال العربية كلها. حتى غدت الإبل في الأمثال العربية موضوعاً يستحق العناية والدرس المفصّل، كما يعالجها أميل بديع يعقوب في مجلة الصحراء. وإن نظرة سريعة إلى هذه الأمثال تعكس بوضوح أن العربي لم يترك شيئاً من الإبل، أو ما يتصل بها إلا واتخذ منه مضرباً للمثل. فقد تمثل بأعمارها المختلفة، وبأعضاء جسمها، وطباعها، ولقاحها، ونتاجها، وحلبها، وحَلَبَتِها، وأدوائها، وعلاجها،

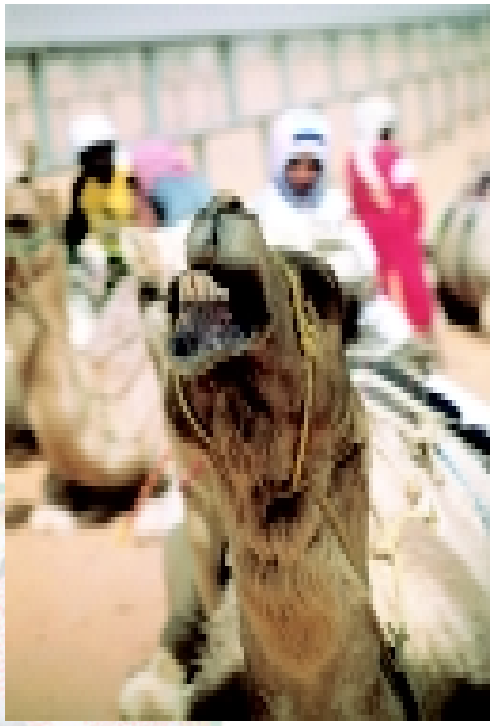

أفواهها مجاسها

وأصواتها، وسيرها، وحدائها، ورعيها، وسقيها، كما تمثل بالأدوات المتصلة بها، ومباركها، ومعاطنها.

فمن تمثلهم بها في أعمارها المختلفة قولهم: «ألأمُ مِنْ فَصِيلِ رَيَّان»، «حَرَكْ لها حُوارَها تَحِنُّ»، و«جَلَّتِ الهاجِنُ عن الولد»، و«ما لَهُ هُبَعٌ ولا رُبَع»، و«أَحَنُّ مِنْ شارِفٍ»، و«زاحِمْ بِعَوْدٍ أَوْ دَعْ».

ومن تمثلهم بأعضائها قولهم «أَفْواهُها مجاسُّها»، و«أَلْقَى عليه جِرانَهُ»، و«حَبْلُكَ عـلى غـارِبِـكَ»، و«فَتَـلَ في الـذّروة والغارب»، و«هُـما كرُكْبَـتي البعـير»، و«بَصْبَصْن بالأَذْنَابِ إذْ حُدِيْنَ»، و«وقعوا في سَلى جَمَلٍ».

ومن تمثلهم بطباعها قولهم في لؤم الجمل وحُمْقه «إنَّمـا يجزي الفتى ليس الجمل»، وقولهم في خفة حلمه وسفاهته «أَخَفُّ حِلْماً من بَعير»، وفي حقده «أَحْقَدُ مِنْ جَمَلٍ»، وفي غيرته «أَغْيَرُ مِنْ جَمَلٍ»، وفي صبره «أصبَرُ مِنْ عَوْدٍ بِدفَّيه جُلَب»، و«أَصْبَرُ مِنْ ذي ضاغِـطٍ»، وفي هدايته «أَهْدَى مِنْ جَمَلٍ»، وفي صَوْلَته «أَصْوَلُ مِنْ جمل».

ومن تمثلهم بلقاحها ونتاجها قولهم «اللَّقوحُ الـرِّبْعِيَّةُ مال وطعـام»، و«لَقُوَةٌ لاقَتْ قبيساً»، و«هَلْ تُنْتِج النَّاقة إلاّ لمن لُقِحَتْ له».

ومن تمثلهم بحلبهـا وحلبتها قولهم «الإيناس قبل الإبساس»، و«الضَّجورُ قَدْ تُحْلَبُ العلبةَ»، و«أَحْلَبُ وأَشْرَبُ»، و«لَيسَ كُلَّ أوانٍ أَحْلُبُ وأَشْرَبُ»، و«حلبْتُها بالسَّاعِدِ

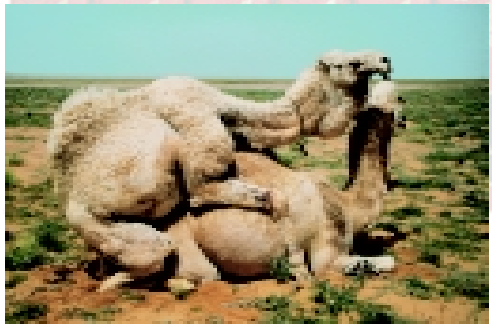

وهل تنتج الناقة إلا لمن لقحت له؟

الأشَدّ»، و«لَتحلُبَنَّها مَصراً»، و«شُخْبٌ في الإناءِ وَشُخْبٌ في الأَرْضِ».

كمـا ضربوا المثـل بأدوائهـا وطرق علاجها، فقالـوا «أَبْغَضُ منَ الطَّلْياء»، و«أَكْذَبُ مِنْ مُجْرِبٍ»، و«كَذي العُرِّ يُكْوَى غيرُهُ وهـو راتعٌ»، و«أَحَرُّ منَ القَـرَعِ»، و«هو يخبطُ خَبْطَ عَشْواء»، و«ما بِهِ قَلَبَةٌ»، و«أَهْوَنُ مِنْ ثَمَلَةٍ».

وتمثلوا كذلك بأصواتها، فقالوا «كَفَى برُغائها مُنادياً»، و«ما له ثاغِيَةٌ ولا راغِيَةٌ»، و«لا أَفْعَلُ ذلك ما أَطَّتِ الإبلُ».

وتمثلوا في ضروب سـيرها، فقالوا «قَدْ تبلغ القطوفُ الوَساعَ»، و«كالنَّازي بينَ القرينَيْنِ»، و«يَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لا ذَلولَ له»، و«كالحادي وليس له بعير».

ومن أمثالهم التي تـعرضت لرعيها قولهـم «رَعَى فَأَقْصَبَ»، و«أَسـاءَ رَعْياً فَسَقَى»، و«عُشْبٌ ولا بعير».

ومن أمثالهم التي تعرضت لـشربها وضروبه قولـهم «آخرها أقلُّهـا شُرْباً»، و«أَهْوَنُ الـسَّقْيِ الـتَّشْـريع»، و«ضَرْبَ أَخْماسٍ لأسْداسٍ»، و«أَشْرَبُ من الهِيْمِ».

ومن الأمثال المتصلة برعاتها قولهم «شَرُّ الرِّعاء الحُطْمَةُ»، و«ليسَ لـها رعاءٌ ولكنْ حَلَبَةٌ»، و«آبَلُ مِنْ حُنَيْفِ الحَناتِمِ»، و«آبَلُ من مالك بن زيد مناة»، و«ما له هابِلٌ ولا آبِلٌ».

ومن الأمثال التي تعرضت لأدواتها «حَرِّكْ خِشاشَهُ»، و«جُرّوا له الخَطـيرَ ما انْجَرّ»، و«لا يَرْحَلَنَّ (أو يَرْحَلْ) رَحْلَكَ مَنْ ليس مَعَـك»، و«ضَرَبَ في قتبِهِ»، و«ضَرَبَ في جَهـازه»، و«ماتَ عريضَ البطان»، و«التَقَتْ حَلَقَتا البِطانِ»، و«التقى البِطانُ والحَقَبُ».

وتمثـلوا بمبارك الإبـل وحظائرهـا، فقالوا «عودي إلى مَباركك»، و«هذا أَمْرٌ لا تَبْرُكُ عليهِ الإبْلُ»، و«إِنَّهُ لَضَيِّقُ العَطَنِ»، و«إِنَّهُ لَـواسِعُ العَطَـنِ»، و«كالمُهَدَّرِ فـي العُنَّةِ».

ونذكر، أخيراً، من الأمثال المتعلقة بالإبل قدراً، نفصِّل فيه شيئاً من معـنى المثل، كقولهم:

- «أَوْسَعْتَهُمْ سَبّاً وَأَوْدَوا بِالإبِلِ». يضرب للرجل يتهدد غيره، وليس على عدوه منه ضرر. والمثل لكعب بن زهير، قاله لأبيه زهـير، وكان الحارث بـن ورقاء الصيداوي من بني أسيد أغار على إبل زهير، فذهب بها وبراعيها يسار، فجعل زهير يـهجوه ويتهـدده. ولما أكثر من هجائه وهجاء قومه، وهم لا يكترثون له، قال له ابنه كعب: «أَوْسَعْتَهُمْ سَـبًّا وأَوْدَوا بالإبل»، أي لـيس عليهم مـن هجائك إياهم كبير ضرر عند أنفسهم، وقد أودوا بإبلك، فأضروا بك.

كالمهدر في العنة

- «الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة». هذا القول المأثور ينسب إلى النبي ﷺ، ومعناه أن الإنسان الكامل الأوصاف نادر كندرة الراحلة (وهي الناقة النجيبة) في الإبل.
- «إبلي لم أَبِعْ ولم أَهِبْ». أي لم أبعها ولم أهبها، يضرب للظالم يخاصمك فيما لا حق له فيه.
- «يا إبْلي عُودي إلى مَبْارَكِكِ». يضرب لمن نفر من شيء له فيه خير، أو لمن ينفر من شيء لا بد له منه.
- «لا ناقة لي فيه ولا جمل». يضرب للتنصل من الأمر.
- «الذَّود إلى الذَّود إبل». أي إن جمع القليل إلى القليلَ يولد الكثير، وفي المثل حث على الاقتصاد والتوفير، وهو ينسب إلى النبي ﷺ. والذود: ما بين الاثنتين والتسع من الإبل، وقيل: ما بين الثلاث والعشر، وقد مرّ تفسيره.
- «آخِرُها أَقَلُّها شُرْباً». أصله في سقي الإبل، وذلك أن المتأخر عن الورد ربما جاء وقد مضى الناس بصفو الماء. ولا يكون التأخر عن الورد إلا لعجز وذل؛ قال النجاشي يذم قوماً:

قبيلتهم لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الورّاد عن كل منهل

يضرب في الحث على التقدم في الأمور.

- «تُوَطِّنُ الإِبلُ وتَعافُ المِعْزَى». أي إن الإبل توطن نفسها على المكاره لقوتها، وتعافها المعزى لذلها وضعفها. يضرب للقوم تصيبهم المكاره، فيوطن شجعانهم أنفسهم عليها، ويعافها جبناؤهم.
- «جاءَ بِأُمِّ الرُّبَيْقِ على أُرَيْق». أم الربيق: الداهية. وأريق: تصغير (أورق) وهو من الإبل ما كان في لونه بياض إلى سواد. وتزعم العرب أن المثل من قول رجل رأى الغول على جمل أورق. يضرب لمن جاء بالداهية الكبيرة، ويروى «جاءَ فُلانٌ بالرُّبَيْقِ على أُرَيْق».
- «جَدُّكَ يَرْعَى نَعَمَكَ». الجد هو الحظ. والنعم الإبل. يضرب للمضياع صاحب الحظ.
- «جِذْلُ حكاك». الجذل: أصل الشجرة، وربما ينصب في مبارك الإبل فتحتك به الجربى. يضرب للرجل يستشفى برأيه وعقله.
- «الجَرْعُ أَرْوَى والرَّشْفُ أَشْرَبُ». الجرع: البلع. أروى: أسرع ريا. والرشف والرشيف: المص للماء. والشراب إذا رشف قليلاً قليلاً كان أقطع للعطش وأجلب للري وإن كان فيه بُطء. يضرب لمن يقع في غنيمة فيؤمر بالمبادرة والاقتطاع لما قدر عليه قبل أن يأتيه من ينازعه. وقيل معناه أن الاقتصاد في المعيشة أبلغ وأدوم من الإسراف فيها.

الإبل في معتقدات العرب

نظر العربي إلى الإبل نظرة تعجب، وأشار الدميري إلى ذلك في كتابه حياة الحيوان الكبرى فذكر أنّ الإبل من الحيوانات العجيبة. وإن كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها. وهو أنها حيوان عظيم الجسم، سريع الانقياد، ينهض بالحمل الثقيل، ويبرك به. وتأخذ زمامه فأرة، فتذهب به إلى حيث شاءت. ويتخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه، مع مأكوله، ومشروبه، وملبوسه، وظروفه، ووسائده، كأنه في بيته. ويتخذ للبيت سقف. وهو يمشي بكل هذا.

وأعجبوا بصبرها على الجوع والعطش خاصة، وشدة جلدها على السير، فجعل نسباً بينها وبين الجن، وقالوا إنها تعان سريعاً، أي تؤثر فيها العين أكثر منها في سائر الحيوان. وزعموا أن في أرض وبار إبلاً وحشية،

هي الحوش من بقايا إبل عاد وثمود. وقالوا: بل هي إبل الجن تعيش في تلك المجاهل من الربع الخالي، فإذا اقتربت منها إبل الإنس من ناحية عُمان تلاقحت، فكان منها الإبل المهرية والعسجدية.

وكان العربي إذا كثرت إبله، فبلغت الألف، فقأ عين فحلها تيمناً، أو اتقاء لشر العين. فإن زادت الإبل عن الألف، فقأ العين الأخرى. وكان من عادة العرب في العصر الجاهلي أن الرجل إذا نجته ناقته من مفازة موحشة، فوصل سالماً من سفر بعيد، أو نجا عليها من حرب، نذرها للراحة، فقال «ناقتي سائبة»، فلا ينتفع بظهرها، ولا تحلأ عن الماء (أي لا تحبس عنه)، ولا تمنع من كلأ، ولا تركب. كما كانوا إذا مات صاحب الناقة، يجيئون بناقته إلى قبره، فتعقل عنده مما يلي موضع رأسه، ويعكس رأسها إلى ذنبها. ويشد وجهها بكساء، فتترك لا تطعم، ولا تسقى حتى تموت. وفي معتقدهم أن الرجل، إذا قام يوم البعث، وجد مطيته حاضرة فركبها.

ويقول روجر وبستر الذي ينقل عن بعض البدو من آل مرة والعجمان، في مقابلات قام بها عبدالعزيز العشبان وتمت التسجيلات بالقرب من شرورة في الركن الجنوبي الغربي من الربع الخالي، يقولون:

> الإبل بالنسبة لنا نبيلة ميزها الله العلي القدير بالنبل، وتقول الروايات التي توارثناها عن الأجداد أن الله العلي القدير خلق الإبل من الغمام، وبسبب التقدير العالي والتشريف من قبل الله سبحانه وتعالى ومن قبل خلقه خلق الإبل من الغمام، وعندما هبطت إلى الأرض لم تكن الأرض قد خُلقت بعد -هكذا تروي الأسطورة- وظلت الإبل طافيه في الهواء مثل طائر لا يجد ما يحط عليه؛ ولهذا خلق الله الأرض وزوّد الأرض بهذه الجبال التي تراها، ثم زودها بالرحال وكل شيء آخر وهبطت عليها الإبل. والآن عندما تتجمع الغيوم تكون أشكالاً، وهذه الغيوم البيضاء يمكن أن تتخيلها على أنها إبل راكعة (مجلة المأثورات الشعبية ١٩٩٠: ع١٧: ١٣).

ويضيف (وبستر) أسطورة ثانية عن امتلاك الناس للإبل يقول:

> «يقولون إن الناس في قديم الزمان لم تكن لديهم إبل ولم يعرفوها، وكانوا مستوطنين يعيشون في المدن،

ولم يعرفوا الإبل، وكانوا، في مدنهم، يزرعون القمح ويحصدونه. وذات صباح عثروا على آثار إبل، ولم يكونوا قد عرفوها من قبل، وكانت هذه الإبل قد أتت إلى القمح وأكلت نصفه في الليل، وذهبت إلى حال سبيلها، وقال أحدهم: والله لقد كان هناك شيء في القمح، إن هذه الآثار آثار إبل، وأضاف: لقد حوّل القمح نفسه إلى خبز، ودبّت فيه الحياة وسار ليلاً، وتتبعوا الآثار كما لو كانت آثار أرغفة خبز دبّت فيها الحياة، وعندما تتبعوا الآثار وصلوا إلى الإبل وطاردوها، وأخذوا جميعاً يقتتلون، وسقطت (عقالاتهم) فقد كانت العقالات ملفوفة حولهم، وأمسك كل منهم ببعير لنفسه، ومنذ ذلك الوقت والناس يتقاتلون من أجل الإبل، كل شخص يقتل الآخر للحصول على جمل يركبه أو إن أراد ليذبحه ليأكل لحمه، وإن كانت الإبل نوقاً ليحصل على حليبها (١٩٩٠: ع١٧: ١٨).

ويورد موزل في كتابه أخلاق الرولة وعاداتهم وتحت فصل بعنوان «الإبل في حياة الرولة» أسطورة يتداولها الرولة نذكرها هنا مع أنها مجرد أسطورة لا أساس لها من الصحة، تقول:

إن العرب (البدو) في الأصل لم يكن عندهم إبل، وإن اليهود لم يكن عندهم خيل، فنزل اليهود في جرف صخري وعر في منطقة الهضب جنوب غرب نجد، ولم يكن باستطاعة أي بدوي الوصول إليهم البتة خوفاً من أن يضل طريقه ويهوي في أحد الشقوق الصخرية. وعندما قام البدو بالإغارة على إحدى القبائل القاطنة بجانب الهضب، ضلوا طريقهم وسط الجبال على الرغم من أنه كان يرشدهم أحد الرعاة الذي كان يدّعي معرفته بجميع المسالك المؤدية إلى المنطقة كلها. تركت هذه الحادثة لدى البدو شعوراً بأن تلك الأرض غير ملائمة للحياة.

قام المغيرون بالزحف على بطونهم من شعب إلى آخر ولكنهم لم يستطيعوا أن يخلصوا أنفسهم من بين تلك الصخور الوعرة. واضطروا لذبح بعض خيولهم وطبخ لحمها، بعد أن نفد ما معهم من الزاد الذي تزودوا به للغارة.

واستمروا في البحث دون أن يتمكنوا من العثور على طريق يؤدي بهم إلى السهل. وأخيراً التقوا بأحد المسافرين؛ فسألوه عن أقرب مخيم، فذكر لهم أن بعض اليهود يقيمون قريباً منهم، وقادهم ذلك المسافر من خلال طريق ضيق ممتد بين جبلين مرتفعين، تفصل بينهما الشعاب، إلى أن أبصروا خيام اليهود السود داخل أخدود جبلي منعزل بين سفوح التلال، وأمامها وفيما بينها حيوانات غريبة لم يروا مثلها من قبل، أخبرهم المسافر أنها تسمى (إبلاً).

اختبأ البدو في المرتفعات المجاورة، وبعد أن أشرقت الشمس نزلوا إلى الأخدود. وقد أخذوا بأعنة خيولهم، وأعدوا العدة للهجوم على اليهود. وما إن رأى اليهود هؤلاء الغرباء، يمتطون تلك الحيوانات الغريبة، التي لم يشاهدوها من قبل، حتى هربوا وسبقتهم إلى الهرب نوقهم البيض (الوضح). قامت كل ناقة فاقعة البياض في ذلك المعسكر بالهرب مقتلعة في طريقها أطناب البيوت شاقة طريقها وجافلة نحو الأخاديد المجاورة؛ بينما كانت النوق التي تدعى (زرقاء): ولونها أبيض أيضاً ولكن يشوبه بعض الوبر الأسود أو القريب من الأزرق، تنظر بفضول إلى البدو وخيولهم؛ مما جعلهم يغنمونها دون جهد، وهتف قائد البدو قائلاً: «لا بارك الله بك»، وأمر رجاله بذبح حيران النوق الزرق التي يعثر عليها في المعسكر.

عاود البدو الكرة على اليهود يقودهم ذلك المسافر، فحاصروا المكان الذي لجأوا إليه واستلبوا منهم النوق التي مازالت بحوزتهم. منذ ذلك التاريخ لم يبق بيد اليهود شيء من الإبل، فقنعوا واستعاضوا عنها، في سد احتياجاتهم، بالغنم والماعز ومع ذلك فما زال اليهود -كما تقول الأسطورة- يأملون في أن تعود إليهم النوق، وهم لا يكلّون ولا يملّون من صنع الدلاء الجلدية التي يملؤونها بالماء كل يوم جمعة ويرقصون عليها ويطوفون حولها، وينتظرون أن تظهر الإبل، لكنهم يحاولون عبثاً: «رجوى اليهود من البل» (Musil 1928:329-330).

ويذكر روكس العزيزي أسطورة تقول إنّ للبدو في الإبل وكراماتها

اعتقادات غريبة، فمن تقديرهم للإبل قولهم «البل لو اتعرف الصلاة صلت» ومن أمثالهم أيضاً «البل، بِلْ يهود، تجي للي يجود واللي ما يجود». يعتقد البدو أن الله تعالى عندما خلق الإبل، عرف اليهود أن الإبل أكرم ما خلق الله في عالم الحيوان، فعمد جد اليهود إلى الإبل، وأخفاها في عضده، ولما علم الله بخبث جد اليهود، وبأنه فعل ذلك ليحول بين العرب وامتلاك هذا الحيوان المقدس الشريف، نقم على جد اليهود ولعنه ولعن نسله، وهمزه في عضده، فخرجت الإبل صغيرة كالديدان تسعى، ثم سلمها للعرب تشريفاً لهم على خلق الله كافة، وقد حرّم الله على اليهود لحم الإبل إلى يوم الدين، غير أنه، على كل شرف الإبل وقداستها، فإن إقامتها في عضد جد اليهود، تغتذي من دمه، أكسبها شيئاً من أخلاق اليهود مثل شدة الخنوع الذليل، فهي لا تأنف الإقامة عند البخيل. كما تقيم عند الكريم، كأنها اليهودي، الذي يعتقدون أنه خلق مفطوراً على الذل والخنوع. وتحين الفرصة للانتقام، والحقد.

ويعتقدون أن الله عندما سلم الإبل إلى العرب يوم استردها من جد اليهود، لم يعطهم عُقُل تلك الإبل، فلا تزال عُقل الإبل موجودة عند اليهود يتوارثونها، ويحتفظون بها في كُنُسِهم. وهم يبكون عندما يصلون، حزناً لفقدهم الإبل، فهم لا يظهرون العُقل، لئلا يختلسها منهم العرب فيفقد اليهود البرهان الأوحد الذي يثبت حقهم في الإبل، وعُقُل الإبل هي الأمل الضئيل لليهود في استرداد الإبل، وفي أمثالهم «رجوى اليهود بالبل وبام الرصاص»؛ قال نمر بن عدوان:

ياجديع وارجوى عشيري تْمضي
رجوى اليهودي للبكار المقاظي

كما قال جديع بن قبلان رداً عليه:

يانمر انا رجوى عشيري تسلّي
رجوى اليهودي للبكار المتالي

فمن أين جاء البدو هذا الاعتقاد؟ إن لم يكن العرب في أيام بداوة اليهود، -وهم في جزيرة العرب- قد غزوهم وكسبوا منهم الإبل، فنسج خيالهم الخصب هذه الأسطورة!.

وقد ورد وصف البدو للإبل بأنها (يهوديات) قال الشاعر الشعبي الشريف جباره الصفار:

هيّض علي بتالي الليل والف
لها ضايعٍ يوم الهجيج حوار
تحن وهي قد عاقها عن لحوقه
على الساق بعض الرامحات كسار

تحن اليهوديات من فقد ليله
عِزّي لمن فرقاه بيع جمار
هذا وهي عجما فياويل من له
أولاد في سن الرضاع صغار

وهذا الاعتقاد المبني على الأسطورة يخالف التاريخ تماماً، فقد كان اليهود يعتمدون في تنقلاتهم على الحمير، وكانت الإبل من الحيوانات النجسة وغير الطاهرة حسب الشريعة اليهودية كما جاء في سفر اللاويين ٤/ ١١، وسفر التثنية ٧/ ١٤، وفي سفر الأحبار ١١/ ٤ «والجمل فإنه يجتر، ولكنه غير مشقوق الظلف فهو رجس لكم» (سوسه د. ت: ٣٢).

وقال الشريف جري الجنوبي:

ردّت تجاوبني من الهجن عرمس
لها بين ملتج الضلوع عويل
تحن اليهوديات من ولف ليله
تحن واقول ان البعير هبيل

وورد في كتاب الحيوان للجاحظ قوله:

والناس يقولون في الإبل أقاويل عجيبة، فمنهم من يزعم أن فيها عرقاً من سفاد الجن، وذهبوا إلى الاعتقاد بأنه إنما كُرهت الصلاة في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعنان الشياطين. وزعم ناس أن من الإبل وحشياً، فزعموا أن تلك الإبل تسكن أرض وبار لأنها غير مسكونة، ولأن الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء أطلب. قالوا: وربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض فيضرب في أدنى هجمة من الإبل الوحشية. قالوا: فالمهرية من ذلك النتاج...

وقال آخرون: إن من هذه الإبل الوحشية الحوش، وهي التي من بقايا إبل وبار، فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس بقيت إبلهم التي لا يطورها (يحوم عليها) إنسي، فإن سقط إلى تلك الجيزة بعض الحلفاء، أو بعض من أضل الطريق حثت الجن في وجهه، فإن ألح خبلته، فضربت هذه الوحوش في العمانية فجاءت هذه المهرية وهذه العسجدية التي تسمى الذهبية (١٣٦٤، ج١: ١٥٢).

ومن معتقداتهم ذبح الفرع، والفرع أو الفرعة هو أول نتاج الإبل والغنم، وكان أهل الجاهلية يذبحونه لآلهتهم تبركاً وتقرباً. وقيل هو ذبح كان يذبح إذا بلغت الإبل ما يتمناه صاحبها. وقيل هو بعير كان يذبحه صاحب الإبل إذا بلغت إبله

المئة، فينحر، ويأكله الناس، دون أن يذوقه الرجل أو أحد أفراد أهله (الحتي ١٤١٠: ٥٦-٥٨).

ومن أمثالهم في هذا أيضاً قولهم: «كل نجار إبل نجارها»، وهو مأخوذ من قول أحد اللصوص، وكان قد أغار على إبل من وجوه مختلفة، وجاء بها إلى السوق لبيعها، فسأله الناس عن سمتها للتعرف على أصحابها، فأنشأ يقول:

تسألني الباعة أين نارها
إذ زعزعوها فسمت أبصارها
كل نجار إبل نجارها
وكل دار لأناس دارها
وكل نار العالمين نارها

وكان من عادتهم، أيضاً، أن الإبل إذا فشا فيها الجرب كووا بعيراً صحيحاً أمامها وهي تنظر إليه زاعمين أن الأجرب يبرأ بذلك، ويدل على هذا قولهم لمن يعاقب بذنب غيره: «كذي العر يكوى غيره وهو راتع». وهو مأخوذ من قول النابغة الذبياني في اعتذارياته:

فحملتني ذنب امرئ وتركته
كذي العر يكوى غيره وهو راتع

وقد سخر الجاحظ من هذه العادة، فقال: «وكانوا إذا أصاب إبلهم العر، أي: الجرب، كووا السليم ليدفعه عن السقيم، فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم».

وكانوا يحرمون على أنفسهم البحيرة، والسائبة والحامي. فأما البحيرة، فكانت الناقة إذا انتجت خمسة أبطن عمدوا إلى الخامس منها ما لم يكن ذكراً، فشقوا أذنها، وتركوها، فلا يجزّ لها وبر، ولا يحمل عليها شيء، ولا يذكر عليها إن زكيت اسم الله تعالى، وتكون ألبانها للرجال دون النساء.

وأما السائبة، فكان الرجل يسيب الشيء من ماله، بهيمة أو عبداً، فيكون حراماً أبداً، وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء. وأما الحامي، فكان الفحل إذا صار من أولاده عشرة أبطن، قالوا حمى ظهره، فيترك، ولا يحمل عليه شيء، ولا يركب، ولا يمنع ماء، ولا مرعى. وقد أشار مثل من أمثالهم إلى هذه العادة، وهو: «حراماً يركب من لا حلال له»، ويروى: الحرام أو حرامه. وأصله أن جبيلة بن عبدالله القريعي أغار على إبل جرية بن أوس بن عامر من بني الهجيم، فأطردها (جعلها طريدة) غير ناقة مما يحرم أهل الجاهلية ركوبها، فأراد جرية أن يركبها في أثر القوم، فقال له ابن

أختـه: إنها حرام، فـقال جرية هـذا المثل، ثم لحقها، فبارزه جبيلة، فطعنه جرية، فقتله، والمثل يضرب لمن اضطر إلى ما يكرهه، أو في القناعة باليسير عند فوات الجليل.

وقد حرم الله تعالى اتخاذ البحيرة والسائبة، والوصيلة والحامي -كما مر بنا- فجاء في كتابه العزيز: ﴿ما جعل الله من بحـيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حامٍ﴾ (المـائدة:١٠٣). وقد ورد في تفسير الآية الكريمة ما رواه البخاري عن سعـيد بن المسيب قـال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيـت فلا يحلبها أحد من النـاس، والسائبة التي كانـوا يسيبـونها لآلهتهـم فلا يحمل علـيها شيء، والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتـاج الإبل بأنثـى ثم تثنـي بعد بأنثى وكانـوا يسيبونها لطواغـيتهم إن وصلت إحداهما بأخـرى ليس بينهما ذكر، والحـامي فحـل الإبل يـضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضربه ودعوه للطواغيت وأعفوه من أن يحمل عليه شيء وسموه الحامي.

وكانوا يعتقدون في إغلاق الظهر، ومفاد هذه العادة أن الرجل منهم إذا بلغت إبله مئةً عمد إلـى البعير الذي كملت به مئة فـأغلق ظهره بأن ينزع شيئاً من فقـراته ويعقر سنامه كي لا يركب ليعلم أن إبل صاحبه قد أمأت (بلغت المـئة)؛ وأما إذا بلغت ألـفاً، فقد سبـقت الإشارة إلى أنهم كـانوا يفـقأون عين الفـحل الذي كمـل به الألف؛ وأما إن زادت على الألف، فإنـهم يفقـأون عيني الـفحل معـاً، ويزعمـون أن ذلك يدفع الـعين عن الإبل. قال الشاعر:

وهـبـتـهـا وأنـت ذو امـتـنـان
تـفـقـأ فـيـهـا أعـين الـبـعـران

وأما في طبهم، فـكانوا يعتقدون أنه ليس للبعير مرارة، وإنما على كبده شيء يشبهـها وهي جلدة فيها لعـاب يكتحل به فينفع في الوقاية من أمراض العين، وتطـلى به الرقبة، فيـنفع في الشفاء من الخـانوق والصرع. وكانوا يعـتقدون أيضـاً أن شحم البـعير إذا وضع فـي موضع أبـعد الحيات عـن هذا الموضع، وأن فـي كرشه غدة إذا خرجت منه استحجرت، وإذا سحقت بالخل، ابيضت، وهي من أنفع الأشياء للسموم القتالة. وكانوا يسحقون عظم البعير ويـخلطونه بالزيت ويطلـون به رأس المصروع، كما كانوا يذرون لبن الناقة على الدم الـسائل من الجروح، لاعتقادهم أنه يقي من السموم كلها.

كذلك كانوا يعتـقدون أن التمضمض بلبن الناقة يقوي الأسنان، وأن شرب بول الإبل صباحاً يـقوي على الجماع ويزيل صفرة الوجه، وأن بعرها يقطع الرعـاف ويمنع الجدري مـن أن يبقى أثره، ويزيل الثآليل، وأنه إذا ما أذيب سنامـها وطليت بـه البواسير يـسكن وجعها، وأنه إذا شد وبرها على فخذ الصبي الذي يبول في الفراش، انقطع الصبي عن التبوّل فيه.